

## الفصل الثالث العرب حين وفاة النبي

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون على بيعة أبي بكر إذا النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ بوفاة النبي . والواقع أنه لم يسر نبأ في بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ بوفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشترأبت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم . لذلك ارتد العرب في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأبت اليهودية والنصرانية ، وكثر أعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبئهم كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية .

خلاف المهاجرين  
والأنصار بالمدينة

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمة أبي بكر وعمر وما أراده الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموفقة التي انتهى إليها .

أهل مكة يهزون  
بالردة

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقد هم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتّاب بن أسيد عامل رسول الله على أم القرى فتواري منهم . ولولا أن قام فيهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام لإلا قوة ، فن رأينا ضربنا عنقه » لترددوا في موقفهم . على أن سهيلاً أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره . أضاف : « والله ليرتد عنكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردّتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهتمت ثقيف بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي

عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » .  
 وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حُنَيْنٍ ، وذكرت ما بينها وبين مكة  
 من أواصر النسب والقرى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة  
 ونهوض أهل مكة إلى جانبه في أمرها . قد كان له من الأثر في ثقيف مثل  
 ما كان له في أمّ القرى .

موقف ثقيف  
 بالطائف

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها .  
 ثبتت عليه مَزِينَةُ وَغِفْسَارُ وَجُهَيْنَةُ وَبَلِيٌّ وَأَشْجَعُ وَأَسْلَمُ وَخُرَازَةُ . أما سائر  
 العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريباً ، ومن لم  
 تكن نفوسهم قد أُشْرِيتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيرهم من  
 بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجرينهم  
 والأنصار . وهؤلاء رأوا في أداء الزكاة جزيةً تفرضها المدينة عليهم ، وتأباها  
 نفوسهم التي ألفت الاستقلال عن كل سلطان . وهم إنما أدّوها منذ أسلموا إلى  
 الرسول الذي يوحى إليه ، والذي اصطفاه الله من بين عباده نبياً . أمّا وقد  
 اختار النبي جوار ربه ، فأهل المدينة جميعاً لا يفضلونهم في شيء ، وليس لهم  
 ما كان للنبي من حق في المطالبة بها .

موقف سائر  
 العرب

كانت القبائل التي أبت إيتاء الزكاة هي القبائل القريبة من المدينة من  
 عَبَسَ وَذَبِيانَ ومن انضم إليهم من بني كنانة ومن غَطَفَانَ وَفَزَارَةَ . أما الذين  
 قَصَّتْ ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحاً في ردّتهم ، وكان أكثرهم  
 يتبعون رجالاً منهم ادّعوا النبوة ، كَطُلَيْحَةَ في بني أسد ، وَسَجَّاحَ في بني  
 تميم ، وَمُسَيْلِمَةَ في اليمامة ، وذو التاج لقيط بن مالك في عُمَيْيَانَ . هذا إلى  
 ما كان من اتباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العنسيّ ، ومتابعتهم  
 إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك في الفتنة والانتقاص إلى آخر  
 حروب الردّة .

وليست ترجع هذه الصورة في انتقاص الحواضر والبوادي على سلطان قریش  
 وفي ردّها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافي من المدينة وكفى ، بل ترجع كذلك

العوامل التي  
 أدت إلى  
 الانتقاص والردة

إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر في الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً في المنطقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهود النبي سنوات متعاقبة موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية في موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثرب ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود تترى من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبي يبعث إليهم عمالاً يفقهونهم في الدين ويجيبون منهم الصدقات .

العوامل العربية  
طبعاً ألا يتأصل الدين في نفوس هذه القبائل ما تأصل في نفوس أهل مكة والمدينة ، وفي نفوس العرب القرييين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام في منبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصره عداوة اتصلت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه في نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمّا من نأى عن هذه البقعة التي شهدت نشاط محمد سنوات تباعاً ، داعياً إلى الله وإلى دين الله ، فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع إلى استقلاله السياسي وإلى استقلاله الديني .

العوامل الأجنبية  
ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً في هذا الانتقال من العامل الجغرافي . لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير الفرس والروم المتحكمين يومذاك في شئون العالم . أمّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإمارات تابعة لحكهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا

الحكم مناواة الدين الجديده بشئى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاقى ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، وللإهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضح الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبي ؛ وكان هذا النشاط بادياً فى شىء من الحذر قبل وفاته . وسرى من أثر ذلك فى غضون هذا الكتاب ما لا يدع لديك مجالاً للشك فيه . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقاً يعزى بالتصديق بها والانضواء تحت لوائها ، وهذا المنطق الذى أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذى دعاهم للانتقاض والفتنة .

قال الدين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ولم يوص بمن يخلفه ، فخلق بنا أن نحفظ باستقلالنا احتفاظاً بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق فى اختيار من يقوم مقام رسول الله فىنا . أمّا أن ندعن لأبى بكر أو لغير أبى بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله فى شىء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نؤليه نحن أمورنا .

منطق المرتدين  
والدين أبوا  
أداء الزكاة

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حظاً من الاستقلال الذاقى طوع لأهلها أن يفكروا فى استرداد هذا الاستقلال كاملاً بعد وفاته . فهو قد أبى بدهان عامل الفرس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وألقى نير المحوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، فى البحرين وفى حضرموت وفى غيرهما ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزع الزكاة التى تجبى من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان فى المدينة !! وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة فى الدين لا شأن لها بسياسة الحكم !! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة فى الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر

البلاد والقبائل من يفقههم في الدين على ما كان يصنع رسول الله، وأن يكونوا وإياهم أشبه شيء بعصبة أم إسلامية. لا تنبغى إحداها على الأخرى، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها.

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف. أما أهل اليمن وما حاذها من جنوب شبه الجزيرة، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام، فإنما أسلم الكثير من أهلها إكباراً لسلطان محمد الذي امتد في سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس في ملكيهما، فكان امتداده السريع معجزة بهرت الأنظار، وأخذت بالألباب، وجعلت الوفود من كل القبائل تُقبل إلى المدينة تترى معلنةً إلى النبي إسلامها وإسلام القبائل التي تنتمي إليها. أمّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبي فلا عجب أن يتزلزل إيمانها وأن ترتد عن دين طراً عليها، بل لا عجب أن تثور بهذا الدين وأن تتابع الذين يُذكون فيها نار الفتنة باسم العصبية والنصرة العربية.

وقد خُذع هؤلاء أوّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى قيام مدعى النبوة إليه كما يوحى إلى محمد. خُذِعُوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه؛ بل خُذِع بعضهم عنه والنبي ما يزال بين أظهر العرب لم يختر جوار ربه. سمع كثير من بني أسد لطلّسيحة حين ادعى النبوة، وأيد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسرون ويكاد الظمأ يقتلهم. وسمع كثير من بني حنيفة لمسيلمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلغانه أن مسيلمة نبي مثله، وأن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریشاً قوم لا يعدلون. وسمع أهل اليمن للأسود العنسيّ ذى الخمار حين تولّى أمر اليمن وطردها عمّال النبي. على أن رسول الله لم يُعبر هؤلاء المدعين كثيراً من عنايته، ثقة منه بأن قوة الحق في دين الله كفيّلة بإظهار كذبهم، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيّل بالقضاء عليهم.

الأسود العنسي  
وتنبؤ

وكان هؤلاء المدعون للنبوة يشعرون بموقفهم ذلك من رسول الله، فلم ير به أحد منهم ثورة الأسود العنسيّ ذى الخمار. فقد قيل إنه تنبأ وظهر أمره وقتل في عهد الرسول. على أن جماعة من المؤرخين يذكرون أنه سلك مسلك زميليه فصبر حتى قبض النبي، ثم قام بالثورة على الإسلام. يقول يعقوب

في تاريخه : « أما الأسود بن عزة العنسيّ فقد كان تنبأ على عهد رسول الله . فلما يوبع أبو بكر ظهر أمره واتّبعه على ذلك قوم ، فقتله قيس بن مكشوح المراديّ وفيروز الديلميّ ، دخلا عليه منزله وهو سكران فقتلاه » . ويقول الطبري في إحدى الروايات : « فأولّ حرب كانت في الردّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت حرب العنسيّ . وكانت حرب العنسي باليمن » .

لم تكن شبه الجزيرة إذًا هادئة مطمئنة في العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونُدُرُ الثورة تتبدى في جوها ؛ وكانت بوادر الانتقاص في الشمال الشرق وفي الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكن من انتشارها إلا القوة الروحية التي أمدّ الله بها رسوله ، وإلا النصر الذي كان يلزم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيامة ولا أسكت الأسود العنسيّ عن القيام في قومها يزعمان النبوة ، ليكون لبني حنيفة ولليمن ولغيرهم من العرب أن يدعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمة رسول الله وحسن رأيه وبعد نظره وفضل الله عليه وعلى الإسلام لحيف أن تتلظّي الفتنة وأن يصلّي العرب جميعاً نارها في حياته .

حال اليمن قبيل  
فتنة العنسي

وأغلب الظن أن فتنة العنسيّ قامت في آخر عهد الرسول ، وسواء أصح ذلك أم صبح أنها قامت في عهد أبي بكر ، فإن لقصة هذه الثورة على ما يروها المؤرخون طرافة تستوقف النظر وتكشف عن جوانب من النفس الإنسانية تدعو إلى التفكير . فقد بعث رسول الله بين رسله إلى الملوك رسولا إلى كسرى عاهل الفرس يدعوه إلى الإسلام ، فلما تُرْجِمَ له كتاب النبيّ استشاط غيظاً وأرسل إلى بازان<sup>(١)</sup> عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز . وكانت الروم في ذلك الوقت قد غلبت كسرى وهنّت من أمره . فلما تناول بازان رسالة سيّده بعث بها إلى محمد ، فردّ محمد عليه ينهيه بأن شيرويه خلف أباه كسرى ، ويدعوه إلى الإسلام وأن يبتغيّ عاملا له على اليمن . وكانت أنبياء الفتنة في فارس واعتلاء شيرويه عرشها وانتصار الروم عليها قد

( ١ ) بازان أو بههان على اختلاف في رواية الاسم .

اتصلت ببازان ؛ لذلك أسرع إلى تلبية دعوة محمد ، وأقام هذا الفارسيّ عاملاً للنبي العربي على أهل اليمن ، بعد أن كان عامل الفرس عليها .

ومات بازان ، فقسّم رسول الله سلطانه بين أشخاص عدّة ، منهم شهّر ابن بازان الذي تولّى أمر صنعاء وما جاورها ، ومنهم أشخاص من أهل اليمن ، وآخرون من رجاله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . وأن هؤلاء الولاة لينظّم كل منهم أمر ولايته إذ جاءتهم كتب من الأسود العنسيّ يُنذروهم فيها أن يردوا ما بأيديهم فهو أولى به . وكانت تلك أولّ ظاهرة لفتنته .

بده فتنة العنسي

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبذاً يصطنع فنونًا من الحيل ويستهوى الجماهير بعباراته . واقتد تنبأ ولقب نفسه رَحْمَانِ اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، كما لقب مسيلمة نفسه رَحْمَانِ اليمامة<sup>(١)</sup> . وكان يزعم أن له شيطانًا يظهره على كل شيء ، ويظهره على خُطَط أعدائه . وكان يقيم بكهف حَبَّان من بلاد مَذْحِج . وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرَتْ بحديثه ، وفُتِنَتْ بما يزعم من حديث شيطانه .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْرَان فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم أميرى المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنْ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنعاء حيث لقي شهر بن بازان فقتله وهزم جنده . عند ذلك فرّ المسلمون المقيمون بصنعاء وفي مقدمتهم مُعَاذُ بن جبل ؛ ولحق خالد بن سعيد وعمرو بن حزم بالمدينة . وتمّ للأسود الغلب ، وصار إليه ملك اليمن ، وأسلم الناس لأمره ورأيه ، ودانت له البوادي والحواضر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن .

( ١ ) فى لسان العرب أن الرحمن على فعلان لأن معناه الكثرة . وهو اسم الله لا يكون صفة لغيره كالرحيم . وفى اللسان أيضاً أن الرحمن عبرانى والرحيم عربى . ويذكر بعض المشتريين أن الرحمن اسم الإله فى الجنوب من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وجد فى نصوصهم ، وأنه لم يكن معروفًا عند أهل الحجاز .

ولقد تعجب إذ تعلم أن الأسود لقي شهراً بن بازان بصنعاء وليس معه إلا سبعمائة فارس ، منهم من خرج معه من مَدْحَجٍ ومنهم من انضم إليه من نجران . وبهذا العدد القليل انتصر هذا الكاهن المشعبد على أهل هذه الأضقاع واستطار أمره بينهم كالخريق ، ولم تجد قوة منهم إلى مقاومته سبيلاً . ولعلك إن تلتمس لذلك تأويلاً تجده في أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب . فلما قام هذا العنسيّ يسترد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولم يجد الفرس أنصار شهر وأبيه ، ولا وجد المسلمون أبناء الحجاز نصيراً من أهل البلاد يدفع عنهم كيد الأسود وشعبذته . ولعلك واجد هذا التأويل كذلك في أن هذه البلاد كانت مسرحاً لأديان مختلفة ؛ كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تقوّ في نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبئ فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملبين دعوته ؛ فلم يكن أمام المسلمين إلا الفرار ، ولم يكن أمام البقية الباقية من الفرس إلا الإذعان أو الموت .

العوامل التي أدت  
إلى فتنة العنسي

بلغت هذه الأنباء محمداً بالمدينة وهو يعدُّ العُدَّة لغزو الروم ، ولانقمام من مؤتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المحفوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهز جيش أسامة . أفيصرف هذا الجيش إلى اليمن يسكن نائرتها ، ويردّ على المسلمين ديبتهم ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر في شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يعد وجه محمد جيشه ليقمع الأسود وغير الأسود من الخارجين عليه ؟ ! هذا الرأي الأخير هو ما اطمأن محمد إليه . لذلك بعث رسوله وبت بن يُحَنَسَ بكتاب إلى زعماء المسلمين في اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب ، والقضاء على الأسود إماماً غيلةً وإماماً مصادمةً، وأن

مواقف رسول الله  
من فتنة العنسي

يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدةً ودينًا . واكتفى محمد من أمر اليمن بهذا وجعل كل همه لتنظيم جيش أسامة والتغلب على الروم .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضاً وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسي فأخذ يستمتع بنصره وينظم ملكه ، يقيم القوآد على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبيوادي من صنعاء إلى الطائف .

وزيراً الأسود  
وزوجه وقائد جنده

واستعمل الأسود على جنده قيس بن عبد يغوث ، وجعل وزيره فيروز وداذويه الفارسيين . ثم إنه تزوج آزاد امرأة شهر بن بازان ، وكانت ابنة عم فيروز . بهذا وبذلك انضم العرب والفرس إلى لوائه . فلما رأى من تعاضم شأنه ما رأى خيلاً إليه أنه دانت له الأرض ، فلم يبق له إلا أن يأمر فيطاع .

بده الانتفاض  
على الأسود

على أن العوامل التي أدت إلى انتصاره قد تضافرت من بعدُ على الائتثار به . وذلك أنه لما استغلظ أمره وأثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وجعل يرى في الأخيرين وفي سائر الفرس من تنطوى أفعالهم على المكر به .

وعرفت امرأته الفارسية ذلك منه ، فثار في عروقها دم قومها ، وتحركت في نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح ، قاتل زوجها الشاب الفارسي الذي كانت تحبه من أعماق قلبها . ولقد استطاعت بسجيته النسوية أن تخفي ذلك عنه ، وأن تسخو في البذل له من أنوثتها سخاءً جعله يركن إليها ويطمع في وفائها له . لكنه شعر بأن الرجال الذين حوله ، وزيره وقائد جيشه ، لا يُضمرون له من الولاء ما يراه حقاً عليهم لولي نعمتهم . وإذا كان الجيش أشد ما يُحدَرُ ويخاف فقد دعا إليه قيس بن عبد يغوث وأنبأه أن شيطانه أوحى إليه يقول : « عمدت إلى قيس فأكرمه حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر » . وأجاب قيس : « كذب وذى الحمار ، لأنت أعظم في نفسى وأجلّ عندى من أن أحدث بك نفسى » . وأجال الأسود في قيس نظره من مفرق رأسه إلى أخمصه ، وقال له :

« ما أجفأك ! أتكذّب الملك ! قد صدّق الملك وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك » .

وخرج قيس من عنده وكله الريبة فيما يُضسر اه ، ولقى فيروز ودادويه فذكر لهما ما جرى بيته وبين الأسود وسألهما رأيهما فقالا : نحن في حذر . وإنهم لنى ذلك إذ أرسل الأسود إليهما يحذرهما مما يأتريان مع أصحابهما به . وخرجا من عنده ولقيا قيساً وهم جميعاً في ارتياب وعلى خطر عظيم .

المؤامرة للقضاء على العنسى

واتصل نبأ ما يجرى ببلاط ذى الخمار بمن بقى من المسلمين باليمن أو على مقربة منها ، وذكروا رسالة النبي لهم ، فأرسلوا إلى قيس وأصحابه أنهم وليآهم على رأى واحد فى أمر الأسود . وعرف المسلمون الذين أقاموا بنجران وبغيرها من تلك الأنحاء سرّاً من هذه الأنباء ، فكثبوا إلى زملائهم القرييين من الأسود أنهم ورجالهم طوع أمرهم فى قتاله . واستمهلهم زملائهم وطلبوا إليهم أن يلزموا أماكنهم ، وألا يقوموا بأمر يدعو لريبة فيهم أو ينبّه أصحاب الأسود لهم .

وإنما كان ذلك رأى المقيمين على مقربة من الأسود لأنهم رأوا أخذه غيلةً أدنى إلى النجاح من محاربتة . فقد دخلت آزاد زوجته فى مؤامرتهم وإن تظاهرت له بالحب أعظم الحب . وطوّع لها اتصاها بفيروز ودادويه وقيس أن تدبّر وإياهم أمر اغتياله . دلّتهم على حجرة نومه ، وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ؛ فلينتقبوها إذا كان الليل ، وليدخلوا من الثقب ، وليقتلوا غريمهم ؛ فإن يفعلوا فقد تخلّصوا وخلّصوها منه .

اشترك زوجة فى المؤامرة

وقد فعلوا . فلما كان الفجر تنادوا بشعارهم الذى اتّفقوا مع أصحابهم عليه ، ثم نادوا بأذان الإسلام وقالوا : نشهد أن محمداً رسول الله . وأن عبهلة — وهو اسم الأسود العنسى — كذّاب ؛ وألقوا إليهم رأسه . وأحاط بهم حرس القصر ، وتنادى الناس فى المدينة فخرجوا فى عماية الصبح ، واضطرب الأمر ، ثم استقر على أن يتولاه قيس وفيروز ودادويه . وكان لأزاد فى استقراره كما كان لها فى اضطرابه من قبل أكبر الأثر .

مقتل الأسود العنسى

أفقتل العنسيّ قبل موت الرسول أم بعده ؟ ذلك ما اختلف فيه . وقد ذكرنا رواية اليعقوبي من قبل . أما الطبري وابن الأثير فيذكران أنه مات قبل أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وأنه صلى الله عليه وسلم أوحى ذلك إليه ليأية حدوثه فقال : « قُتل العنسيّ ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين » . قيل من قتله ؟ قال : « قتله فيروز » .

والرواية الأخرى تذهب إلى أن موت العنسي لم يصل النبأ به إلى المدينة إلا بعد أن قبض رسول الله ، وأنه كان أول بشارة أنت أبا بكر وهو بالمدينة . وتجري الرواية بأن فيروز قال : « لستأ قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان ، إلى معاذ بن جبل فصلّي بنا ونحن راجون مؤملون لم يبق شيء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود . ثم جاء موت النبي فانتقضت الأمور واضطربت الأرض » . .

كيف اضطربت ، ولماذا اضطربت ؟ تفصيل ذلك لا يدخل في نطاق هذا الفصل ، وحسبنا ما أجملنا عنه في أوله . وستتناول حوادثه في موضعها من جهاد أبي بكر أهل الردّة .

ولإنما أفضنا في حديث عبهلة وثورته بالمسلمين في اليمن لتواتر الروايات بأنه قام بهذه الثورة في عهد الرسول . فأما ما كان من أمر اليمن على عهد أبي بكر فيتخطى العنسي وثورته ومقتله ، ويتناول ما تم بهد ذلك من أحداث نصّفها في موضعها .

تلظى الجنوب  
كله بنذر الثورة

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتفاض على الدين الجديد في بلاد العرب حين وفاة النبي . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسي من القبائل قد كان يتلظى بنذر الثورة في هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلجؤون إلى المصانعة حيناً وإلى البطش حيناً آخر ، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة . ولا عجب أن يكون ذلك أمر حواضر وبواد تبعد عن منزل الوحي بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتباد لهم التجارة وتقرّ لهم بتفوق الحضارة . بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية في تحريك هذه الحواضر والبوداي لتنتفض على الدين الجديد والسلطان الناشئ .

أشرفنا إلى بعث مسيعة بن حبيب من بني حنيفة رسولين إلى محمد بالمدينة يحملان رسالة جاء فيها : « من مسيعة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليكم ، أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا لنصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم لا يعدلون » . وسأل النبي الرسولين حين سمع الكتاب : فما تقولان ؟ قالوا : نقول كما قال . فنظر إليهما مغضباً وقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيعة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيعة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين » .

لم يغفل رسول الله عما تنطوى عليه رسالة مسيعة من نذير . لذلك بعث من المسلمين نهاراً الرجال ، وكان قد فقهه الدين ، ليشغب على مسيعة ، وليفقه المسلمين من أهل اليمامة في الإسلام . وسرى من بعد كيف انضم نهار إلى مسيعة ، وكيف شهد بأنه شريك محمد في الرسالة . بذلك ازداد مسيعة نفوذاً وازداد ادعاؤه انتشاراً . وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسي باليمن فقوى تجاوبها ساعد مسيعة وفيت في أعضاد المسلمين . لكن رسول الله لم يتبجح بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقناً أن الله ناصره على الروم في الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم في القضاء على أسباب الانتقاض والثورة الداخلية في أنحاء بلاد العرب .

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية الترخوم العربية في الشمال من عدوان هيرقل ورجاله عليها . فهيرقل هو الذي دحر الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذي رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو الذي تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين في مؤتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم ينهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تبعد المخاوف من انحدر الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم في غزاة حاسمة قوتى ذلك من عزم المنتشرين منهم في قبائل العرب ، فلا يلبث كل متقاض عليهم أن يرجع عن انتقاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعاً أو كارهاً . وكيف لا يفعل وقد تغلغل المسلمون في أنحاء شبه الجزيرة من

الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة بحسب حسابها ؛ فلم يقوَ مسيلمة في اليمامة ، ولا لقيط في عُمَان ، ولا طُلَيْحَة في بني أسد ، أن يناصبوها العداوة في جهر وإعلان .

تربص المنتهين  
بالمسلمين

لكن لقيطاً وطُلَيْحَة كانا كَمَسِيلِمَة يترَبَّصان لإعلان عصيانهما أن تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ في ناحيته ينشر دعوته في غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبي الهاشمي أو ينتقص من رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبي ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث في قومه وبعث كلٌّ منهم في قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى . وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسي وإن لم ينقصها دهاؤه حيثُثوا حول المسلمين المقيمين بين أظهرهم جوَّ قتل وتربُّص ، تتلظى نيران الفتنة تحت رماده ريثما تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر في بلاد العرب حتى بدأت تُنذرُ هذه الفتنة تتحرك في كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت في صور مختلفة وألوان متباينة تباين العوامل التي أثارتها . وسنفصل ذلك من بعد في وضوح وجلاء . لكننا نقف من حديث هؤلاء المنتهين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة النبي أوثق اتصال :

العرب وفتنة  
المنتبهين

أول هذه الأمور أن رسول الله قبض وبوادى الفتنة تجرى نُذُرُها في جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب . فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُلَيْحَة بالمسلمين . وهذه الربوع التي أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانها كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضحخها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس اتصالاً .

فلا عجب وذلك شأنها أن يلفت انتقاضها نظر الخليفة الأول ، وأن يطيل تفكيره في تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها الأمن والسلام .

والأمر الثاني الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيامة وطليحة أن الاضطراب الدينى بلغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهّل تحريك النفوس باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة . فالنصرانية واليهودية والمجوسية والأصنام كانت كلها تتجاوز ، وكان لكل منها أنصار ظاهرون أو مستترون ؛ لكنها كانت جميعاً موضع الجدل : أيها الحق ، وأيها أذى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهّل على الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعوهم بألوان من المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المنتهين أن يجمعوا حوّلهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أوّل أمرهم من النجاح ما أحرزوا .

تحريك  
الاضطراب باسم  
الدين ، وبه

ولم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادعاء هو العنصر الجوهرى فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ، فى مقدمتها برّم أهل اليمن بالفرس كبرمهم بأهل الحجاز . وسرى من ذلك فى أمر مسيامة وطليحة ما يؤيد قولنا كل التأييد . ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين قائمة . فللعقيدة المتأصاة سلطان على النفوس قل أن يغلبه سلطان . لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فاما أتيج لهم أن يخلعوا إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمان حق ، فاندفعوا وراء الأسود وغير الأسود من المنتهين .

العامل الرطبى  
من أسباب  
الاضطراب

ويزيد رأينا هذا تأييداً ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام . صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام واطمأن إلى الساطان الحاكم منذ دان بازان بدين الحق ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى ساطان الحاكم بمكة والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس المكيين والتقيين ما لم يتركه إسلام بازان والفرس المحيطين به فى اليمن . وتعاليم

رسول الله كانت أبقى أثراً في مكة والطائف ، حتى مع ثورتها عليه ، من تعاليم مُعاذ بن جبل باليمن وإن تمتع من حماية بازان بما تمتع به .

أثر فتنه العدي  
في البلاد المحيطة  
باليمن

الأمر الثالث الذي نستخلصه ، أن فتنه اليمن شجعت اليمامة وشجعت بني أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبي ؛ فقد كان طُأيحة ومسيامة يخشيان قوة المسلمين ويريان أن لا قبيل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرجوا عليها . فلما اجترأ الأسود على رفع لواء العصيان ولقي من النجاح ما لقي وأثار مخاوف المسلمين ، امتدت عدوى الجرأة منه إلى طُأيحة وإلى مسيامة ، ثم زادها جرأة أن اختار النبي الرفيق الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومته ولم يعلن فتنته لبقى الآخران على استحياء في إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحدٌ منهما على مواجهة سلطان المسلمين .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنه التي كانت تتلظى يومئذ في أنحاء شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنه تضطرم ويزداد اضطرامها حتى اندلعت بوفاة الرسول .

رأى المستشرقين  
في الفتنه، وسببها

ويعلل بعض المستشرقين هذه الظاهرة في بلاد العرب لذلك العهد بما كان بين أهلها من تباين في نوع الحياة قل أن يجد الإنسان له في غير هذه البلاد نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حقب التاريخ من خصومات لم تهدأ . فحياة الحضرة وحياة البدو تتجاوران في هذا المحيط تجاوراً عجيباً . وبين البداوة والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلاد ذلك شأنها أمراً غير ميسور . ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذي يفهمه أهل الحضرة مستحيلاً أو يشبه المستحيل . فالبدو لا يعدل باستقلاله الفردي شيئاً ؛ والقبيلة البادية ترى في استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدواناً عليها لا بد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التي تأصلت على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأي يذهبون إلى أن هذا التباين في طباع أهل البادية وأهل الحضرة ، وما جرّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب . كان له أثر بالغ في اضطراب العرب قبيل وفاة النبي وفي السنة الأولى من خلافة أبي بكر .

فالإسلام دين توحيد في العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعاً . أو لا يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الخصومات القديمة ؟ ! ذلك ما دار بخواطرهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتفاض اليمن وغير اليمن في ذلك العهد .

وسواء أضح هذا التعليل أم لم يصح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبي في تحريك البواعث التي أدت إلى انتفاض العرب وردّتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم في رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما جعلهما يعملان على إيقاف نار الفتنة في بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الحديد يجمع كلمتها ويضاعف قوتها . ولا شيء كالفتنة يضعضع العزائم ويفتت في أعضاد الأمم .

أثر العامل  
الأجنبي في إيقاف  
الفتنة

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى فتنة العنسي ، ثم إلى فتنة طليحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتفاض العرب على سلطان المسلمين حتى فيما جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبي بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدتها .

انتفاض العرب  
على النبي

كيف دبّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلّب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهد للإمبراطورية الإسلامية كي يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفي هذا الكتاب حديثه